

نشيد الرسل القديسين

للشاعر رومانس المرنم

عُربيه عن اليونانية

الاب نيفولاوس قادري ق. ب.

نوطه

اننا نعبج اليوم في عصرنا المادي والذي بسرعه الصاخبة يقتل فينا حياة الروح نعبج اذا ما سمعنا ان المسيحيين الاولين كانوا يقضون في الكنائس الساعات الطوال. ونذهل من ان صلواتهم الهادئة المتابعة كانت تتغلغل الى اعماق الليل وطلوع الفجر فكانوا بذلك شهوداً لشمس المسيب وشمس الثروق. ذلك لاننا نجهل كم كانت صلواتهم متنوعة واحتفالاتهم غنية ومرتبطة مصطبقة بلون الدقة والجمال والاتزان الكامل. فكانت فروضهم وانشيدهم بجملها وعظمتها وحسن اتساقها مهيطة على العقول والارادات تصعد بالانسان الى ما فوق هذا العالم المادي بحيث وهو بعيد عن الاضطراب والقلق كان يتحد بالله الراحة المسعة. ومن هذه الجملالات الساحرة التي كانت موضوع اعجاب المؤمنين اناشيد رومانس وكانت احداً. مقطوعات الاناشيد تتجاوب في قلب العاصمة البيزنطية وبين حنايا كنيسة آجيا صوفيا ..

اجل تفوق رومانس على جميع من سبقه من الشعراء الدينيين ولم يعرف التاريخ من بعده شاعراً دينياً حبب الطبيعة مزاياء الشعر للصافي وصفاته كما عرفنا في شاعر الملوك ومتوج القديسين رومانس المرنم. تفوق رومانس بعقريته الشعرية الحقة وبسطة خياله وسعة مفارقه وغنى لفته ومرونة الفاظه وجمال الوحي النضير واتزان الالهام وتجمع موضوعات الشعر في اناشيده. كل هذه الصفات تجعل منه شاعراً مجيداً وعبقرياً وحيداً فريداً.

واننا نتقدم من قرائنا اليوم ونؤف اليهم نشيداً جديداً لهذا الشاعر معرباً عن اليونانية ليقفوا على جمال هذا الوحي الحبيب.

ان نشيد الرسل هو مسرحية دينية كاملة وهو علاوة على ذلك احد اناشيد الملحة الكبرى من مجموعة تأليف بل قل هو ملحمة صغيرة يؤلف وحدة فريدة . نظمه الشاعر رومانس لعيد الرسل الواقع في الثلاثين من حزيران . تحيل الشاعر المسيحي وهو في تأملاته العميقة وصلواته الحاشعة وسجوده المتناهي ذلك المشهد البسيط الذي سرّ امام باصرته ولوحة خياله حيث جمع يسوع تلاميذه على جبل الزيتون وودعهم وسلمهم رعاية الاغنام والسهرة على النفوس ونثر التعاليم في كل الارض .

فكأنني بالشاعر العبقري ينظر بعين خاطفة للالوان النفسية وقلب يشعر بدقة الواضع فيرى جمع الرسل يتألب حول معلمه ويسمع كلامه فكأنه حاضر للشهد الذي تم منذ خمسة قرون على جبل الصعود وينتبه بروح الحواس الى تلك الحوادث التي مرت منذ القدم فيعبرها من جديد ذلك التأمل وتلك الحياة فيجدها بدقاتها وحركاتها واصواتها . وهذا التأمل يثير قوى الشاعر فيحرك قلبه ويلهب خياله بنار اليقظة الكبرى فيفتح عقله على دقائق الحقائق فيسبها من ثم يسوع يفوه بها ويعلمها لتلاميذه الاحباء . فيفرق آنذاك بالسجود والحمد والشكر وينتقي لذلك الايقاع الجميل والمقاطع الموسيقية والاتساق اللذيذ والتبرات الشمية التي تغذي نار عبقرية المقدسة فيكر ساميه بجرة الشمر ورحيق الموسيقى ويصمد بهم الى ارقى ذرى الوحي حيث تتلاشى الاوهام وتتفكك الاغلال المادية ويذول الزمن المتقطع ولا يبقى الا الجمال الثابت والازل المتجدد .

يبدأ النشيد بمقدمة هي صرخة القلوب دعاء ليسوع الاله : « ايها المسيح الاله انت تجتلك السامية للانام ارضعت الصيادين اوسع علماً من الخطباء »^١ وتلي هذه المقدمة مقطوعة ثانية ربما نظمها الشاعر في ظرف آخر او سنة اخرى وهي تحمل فكرة العيد الاساسية وعرض الاشخاص على المشهد : « الكارزين البواسل بالكلمة الالهية وهامات رسلك دعوت ايها الرب . »

ثم يسير النشيد بالمقطوعات الاربع والعشرين على نغمة عذبة وروسية وترتبط المقطوعات باللازمة وبالوزن وبخاصة بالتوزيع المختص هكذا « مزمو

الحقير رومانس : « Τὸ Τριτηνὸν Πάσχα »

وهذا النشيد يبدأ الشاعر مقطوعته الاولى بالاستهلام فيستوحي رومانس كما كانت عادة الشعراء القنانيين في اناشيدهم وملاحمهم ان يستلموا ربة الشعر كما نجد ذلك في مطلع الايلاذة : « ربة الشعر عن اخيلا بن فيلا » ومطلع الانياذة للشاعر اللاتيني فيرجيل :

« Musa, mihi causas memora, quo numine laeso ».

كذلك الشاعر رومانس يستوحي نشيده من اله الوحي من يسوع الخاص « اوضح لساني ، يا مخلصي ووسع في واملأه » *Ὁ ἰσχυρὸς ὁ θεὸς ὁ ἀνέστης ὁ ἐκ νεκρῶν ὁ ἐκ νεκρῶν ὁ ἐκ νεκρῶν* . وبعد عرض الاشخاص والمكان والزمان يأخذ العمل المسرحي مسيره باناقة وهدوء . فيربط الشاعر موضوعه بالفكر الرئيسي ويجمع بين المسيح « الراعي » وبين الرسل « الثعاج » وأتذكرك يضع الشاعر على المشهد المسيح نفسه ويعطي لشقيقه الالهيتين نصوص الكتاب المقدس . ويستعرض يسوع رسله ويخاطبهم كلام الطهر والحب ثم يرسلهم الى متابعة الرسالة الالهية ويوجه الى كل واحد منهم كلاماً خاصاً ومشورات شخضية يستوحيها الشاعر من مشاهد الانجيل وآياته البينات . ويعرف رومانس كيف يلبس اناشيده إهاباً من المسرحية جيلاً : « ان الراعي جمع بعد القيامة الثعاج التي كان الخوف قد بددها حين الصلب . » ثم يوجه كلامه لبطرس : انظر الي يا بطرس ، انظر كيف تزدب الناس . فكل من يجخطيتك - وانت يا اندراوس فتش عن الضليل - يا يوحنا بيتن العمل - وهكذا اصنع انت ايضاً يا يعقوب - اذهب يا فيلبس - يا توما عندما تمحو كلمات الارتياب القديم بآياتك الحاضر - البث عشاراً ، يا متى « ولا يرينا رومانس الا سبعة من تلاميذ يسوع لتلايام السامع ولكن الشاعر بحسن لباقة يختصر حديث يسوع لجميع الرسل « لتلايتب » فيكلهم خطاباً شاملاً جامعاً . أجل يصور رومانس بريشته مشهد الراعي تحوط به نجا به^١ كما في التصاوير والنقوش الفنية الرومانية القديمة ويتراى المسيح يستعرض تلاميذه واحداً واحداً ويكلهم ويسألهم ويجاوبهم ويوجه اليهم ارشاداته الرصينة وكلماته العذبة : تقوا فانا وحدي غلبت العالم ، انا وحدي بددت الذناب ، ما كان معي احد بل كنت

وحدي انا العارف وحدي اسرار القلوب .^(١) فهذه الكلمات تولد في قلوب الرسل وعلى شفاههم اقراراً جميلاً رائماً بايمانهم الحلي يسوع العارف وحده اسرار القلوب فيقولون له : « انت اله انت وقبل الدهور وبغير فنا ، ، إنا نعرفك إلهاً واحداً مع أبك والروح »^(٢).

بينما يتسط النشيد بعظته الساحرة تأخذ المقطوعات حلتها من المسرحية المشبعة بالحياة والحركة فيتناوب الاشخاص على المشهد بدون سأم ولا ضجر . وتتفجر الحياة بالحوار الرشيق وتدفع في الجملات فيسأل السامع والقارئ ماذا يقول لهذا ار لذاك ولا يلبث النشيد ان يتغلت من قيود القصة والاغنية ليصبح مسرحية حقيقية كاملة .

على انه وان يكن للنشيد صبغة المسرحية فهو مغناة رائعة لما فيها من المقاطع والاهجئة الموسيقية الساحرة

Ἡμεῖς ἀδελφοί, μέλεις ἡμεῶν, τῶ πατρὶνος

Θεοῦ διδόνος, καὶ παραδόντος ὡς δαδόντος (٣)

واجمل حكم على جمال الالفاظ ان نقرأ النشيد باللغة اليونانية ومعلوم انه من الصعب لا بل من المستحيل ان نحكم على شاعر من ترجمة نثرية حتى ولو قرأنا ذلك الشاعر بلغة يبقى على الاديب ان يعيش في تلك الفترة من الزمن الذي عاش بها الشاعر والبيئة التي كان يحمل عواطفها وايمانها وتقافتها وبذلك يستقيم الحكم على الشاعر وشعره .

وافكار رومانس سامية وصوره بديعة . اسمه يقول بفم المسيح لبطرس : « فكر بخيانتك قائم مع الجميع برفق واذا ما نفختك الكبرياء فتذكر صياح الديك واذا كرموعك التي غسلتك انا بجاريها . »^(٤) ثم نسع المسيح يقول لاندراوس « قش عن الخليل . بصنارة كنت تصطاد قبل ان تعلم الان ان تصطاد بالصليب »^(٥) . وهذه الافكار السامية نزاهتها تتعالى بالصور الرمزية الفنية : « يا يوحنا احفر لي خندقاً بلسانك كما يجرول » - فألقي اليك عندما تشاء واستقي زرعك وارويه هلا نثرت اقرالك كعجات الحنطة فاضاعف حصادك »^(٦) وهناك صورة الكرمه

(٣) مقطوعة ٥

(٢) مقطوعة ٢٤

(١) مقطوعة ٤

(٦) مقطوعة ٨

(٥) مقطوعة ٧

(٢) مقطوعة ٥

والحرث واذا « بالرسل اغضان كرمه المسيح وخطوط الفنان السماوي . »^{١١}
 وهناك افكار سامية ينثرها الشاعر في نشيده هناك الرفق بلحظة : « تألم
 مع الجميع برقت . »^{١٢} هناك الغيرة على النفوس والبحث عن الضليل : « فنتش
 يا اندراوس انت ايضا عن الضليل . »^{١٣} ومحبة الرسالة : « هلا نثرت اقوالك ، يا يوحنا ،
 كحبات من الحنطة . »^{١٤} ولهذه الافكار الغنية عظمة وسمو ترفع بالقارئ الى
 مستوى الشاعر نفسه وترتقي به لتدخله في جو مشبع من الجمال الالهي .

ويجمل بنا ان نذكر ان هذا النشيد مشبع بالتعاليم اللاهوتية الواضحة فهنا
 مساواة الاقانيم : « انا والاب في الروح الواحد . »^{١٥} وهناك اتحاد الابن بالآب :
 « لا تفصلني عن ابي ، لا تقل اني رأيت الابن واما ابيه فما ابصرته ، لقد
 ابنت لك أن الآب فيّ وانا في الاب . »^{١٦} وقد نرى تعاليم قيامة في الجسم السري
 « عندما تقفون امام القضاة تنظروني في وسطكم وحينما تقيدون انتم فانا
 أقيد معكم . »^{١٧}

والنشيد رائع بلون البساطة ، رائع بفيض الصفات والمزايا ، رائع بجباله
 الشعري ورومانس يبقى في قصائده العبقريّة الفياضة بالحرارة والحياة والقوة
 والجراحة في الأوضاع والالفاظ الفنية « بالسينات » والتعابير الواضحة والاسلوب
 الرصين والمشاهد الحسية بالفن والدرس النفسي العميق كل ذلك يجعل من قصائد
 رومانس مجموعة جمالات تتوارد على خاطره فيسجلها قلمه وتبقى مقطوعاته
 سلسلة من الألواح الحرة بالمعاني والالفاظ الموسيقية والخيال الطليق على عالم من
 الثبرات والصور ومن الصعب جداً ان لا يتأثر القارئ او السامع لقصائد
 رومانس بتلك المجموعة من الالهجة الرنية دائماً وبذلك الاتساق والأيقاع الذي
 خلق عظيماً وسامياً ليودد في اجواء العظمة البيزنطية على ممر الاجيال ، يحكم
 اذن ان النصرانية لا تحسد الاحيال السالفة على شعرائها الفنايين فلها بشخص
 رومانس شاعرها وقيثارها المطرب في كل الصور .

(٣) منطوعة ٧

(٤) منطوعة ٥

(١) منطوعة ٣

(٦) منطوعة ١٠

(٥) منطوعة ١٠

(٢) منطوعة ٧

(٧) منطوعة ١٧

نشيد الرسل القديسين^١

للساعر رومانس المرمم

مقدمة اولى

مقدمة ثانية

ايها المسيح الاله ،	الكارزين البواسل
انت بحبتك السامية للانام	بالكلمة الالهية
أوضعت الصيادين	وهامات رسلك
اوسع علماً من الخطباء ،	دعوت ، ايها الرب ،
وأرسلتهم يبشرون	الى التمتع بخيراتك
في الأرض كلها .	والراحة الابدية ،
فانت بهم ثبت كنيستك	وقبلت اتعابهم وموتهم
وامطربركا لك على المؤمنين ،	افضل من كل الذبائح
ايها العارف وحدك	ايها العارف وحدك
اسرار القلوب ^٢ .	اسرار القلوب .

١ اوضح لساني ، يا مخلصي ،	٢ هكذا في القدم ،
ووسع في واملأ	كان تلاميذك
وامنح قلبي تخشعاً	يتمنون تعاليمك أولاً
لكي اتبع ما اقول ،	ويعلمون ما يعملون
واعمل أولاً	وبكل قوة
ما اعلمه	كانوا معاً يبشرون
فقد قيل :	بتعليمك
ان كل من يعمل	وسياستك
ويعلم	فن كان يراها
فهذا هو العظيم ^{١)}	ويسير عليها
لاني اذا كنت اقول	كما سار رسلك
ولا اعمل ،	فذلك هو العظيم .
فانا أعد كصنح يطن ^{٢)} .	فالتجرد عن خيرات الأرض ،
لذا هبني القول الشديد	والاهتمام الدائم بالسما ،
والعمل المفيد ،	وحمل الصليب على الاكتاف ^{٣)}
ايها العارف وحدك	هو فرح عند الموت ،
اسرار القلوب !	كما رقت انت ،
	ايها العارف وحدك
	اسرار القلوب !

١) متى : ٥ - ١٩

٢) ١ كور ١٢ - ١

٣) متى : ١٦ - ٢٤

٣ ايها المؤمنون ،
 ان تبيان فضائل الرسل
 لموضوع بهي
 يعطر الأرض كلها ،
 فالرسل اغصان كرمة المسيح^١
 وخطوط الفنان السماوي .
 صيادون قبل المسيح ،
 وصيادون بعد المسيح^٢ .
 والذين كانوا يترددون الى البحر
 ها هم الآن يفيضون
 عنب الكلام .
 قبلاً كانوا
 يصيدون الاسماك ،
 والآن علمتهم صيد الناس
 انت ايها العارف وحدك
 اسرار القلوب .
 ٤ ان الراعي جمع
 بعد القيامة
 النعاج التي كان الخوف
 قد بددها حين الصلب .
 ولما وقف بهم
 في العلاء على الجبل
 أسمعمهم لحناً مطرباً
 وبث الشجاعة
 في الرعية .
 كلمهم قليلاً كجبنائهم^٣
 وهتف قائلاً :
 « ثقوا فانا وحدي
 غلبت العالم^٤ »
 انا وحدي بددت الذناب
 ما كان معي احد
 بل كنت وحدي ،
 انا العارف وحدي
 اسرار القلوب .^٥

(١) يوحنا : ١٥ - ٥

(٢) متى : ١٨ ، ١٩

(٣) يوحنا : ١٤ - ١

(٤) يوحنا : ١٦ - ٢٢

٥ اذن اذهبوا الى الامم كلها
 وانثروا في الارض
 زرع التوبة
 ورووها بالتعاليم.
 انظر اليّ ، يا بطرس
 انظر كيف تؤدب الناس ،
 فكّر بخطيتك
 تألم مع الجميع برفق ،
 بسبب هذه الجارية
 التي زعزعتك .
 واذا ما انفختك الكبرياء ،
 فتذكر صياح الديك^(١) ،
 واذا ذكر دموعك
 التي غسلت انا
 بجاريها .
 انا العارف وحدي
 اسرار القلوب .
 ٦ يا بطرس ، انجني ؟
 اصنع ما قلته لك .
 ارفع رعيّتي^(٢) ،
 وأحب الذين احبهم انا ،
 تألم مع الخطاة ،
 وتذكر عطفي اليك :
 اني قبلتك
 بعد نكرانك لي ثلاثاً
 انت احزنت اللص
 بواب الفردوس ،
 هو يشجعك .
 فارسل اليه من تشاء .
 بكم أنتم سيمود
 آدم اليّ صارخاً :
 ان الخالق اعطاني
 اللص بواباً
 وكيف صاحب المفاتيح
 انه العارف وحده
 اسرار القلوب .

(١) متى : ٢٦-٢٥

(٢) يوحنا : ٢١-١٥ ، ١٧

- ٧ وانت يا اندراوس ، بي تقو ١ ٨ يا يوحنا بين الآن العمل .
 كما وجدتني اولاً^(١) الآن الآن ليعلم الجميع
 وجدتك انا اني ما اسندتك
 فقتش انت ايضاً عن الضليل ، الى صدري باطلاً^(٢)
 ولا تنس المهنة الاولى فاصنع اتلاما
 لاني بها ساعلمك لينبوعي ،
 المهنة الثانية^(٣) . فيدقق حبك
 كما كنت قبلاً عارياً في البحر بحاريه .
 فالآن الآن تعرّ احفر لي خندقاً
 عن الحياة بلسانك ، كما بعمول ،
 فتعلم الان أن تصطاد بالصليب قآتي اليك عندما تشاء
 بصنارة كنت تصطاد واسقي زرعك وارويه .
 بالثص كنت تقتنص قديماً هلاً نثرت اقوالك
 منذ اليوم ساعلمك كجبات من الحنطة
 القنص يجدي فأضاعف حصادك
 انا العارف وحدي واكثره
 اسرار القلوب انا العارف وحدي
 اسرار القلوب .

(١) يوحنا ١ : ٤٠-٤١

(٢) متى ٤ : ١٨-١٦

(٣) يوحنا ١٤-٢٥

- ٩ وهكذا اصنع
 انت ايضاً ، يا يعقوب :
 لا تهمل التبشير
 حين تذكركم اباك زبدي
 الذي فضلتني عليه
 انت تعلم كيف تركت
 اباك في السفينة^(١)
 واحببتني انا الخالق .
 الا اكل ارادتي مع رفاقك
 لا تخف الخونة
 فقد بددت مشوراتهم^(٢)
 وعندما يقطعونك
 بالسيوف^(٣)
 فكّر في انا من
 طعن جنبه بجريرة
 انا العارف وحدي
 اسرار القلوب .
- ١٠ اذهب ، يا فيلبس مع هؤلاء .
 وبشر بي كما تراني
 وتسمعني الآن .
 لا تفصلني عن ابي
 لا تقل اني رأيت الابن
 واما ابوه فما ابصرته^(١)
 لقد ابنت لك
 ان الآب فيّ وأنا في الآب .
 انا لم افارقه
 بل اتم ما يريد
 وهو يتمم ما اشاء .
 انا والآب في الروح الواحد .
 سارسلك بشير الروح
 والمحامي عنه
 انا العارف وحدي
 اسرار القلوب

(١) متى : ٢٦، ٢٢-٢٣

(٢) اعمال : الرسل ١٢-٢

(٣) يوحنا : ١٦، ١٨-١٩

١١ يا توما ، عندما تمحو	١٢ البث عشاراً ، يا متى ،
كلمات الارتياب القديم ^(١)	وعشر عدو آدم ،
بايمانك الحاضر	كما كنت تفعل قدما ^(٢)
بشر بالذي فتشته .	بالمبرين . هـ
قد اقترب الزمان	لا تُشفق حتى تقبض منه
الذي كنت دائماً	آخر فلس .
تتوق اليه ،	واجلس وراقب
لتجابه شمع العبرانيين .	الطريق المؤدي
لديك الآن بجلاء .	الى الجحيم ،
ضمانات قيامتي .	واذا وجدت
نظرت مواضع المسامير ،	قاتل الانسان
وراقبت آثار الحربة ^(٣)	خارجاً من منازل
فما لك بعد من عذر ،	فاجلس وعشر
فقد ازلت عنك كل ريبة	واظهر قاتل الانسان عارياً ،
انا العارف وحدي	كما امرتك
اسرار القلوب .	انا العارف وحدي
	اسرار القلوب .

(١) يوحنا : ٢٠-٢٥

(٢) يوحنا : ٢٠-٢٧

(٣) مرقس : ٢-١٤

١٣ هوذا كلامي واحد	١٤ فاذهبوا اذن
انطق به للجميع	الى كل الامم
حتى لا اتعب	وانثروا في الارض
حين اعلم تلاميذي	زرع التوبة
واحدًا فواحدًا .	ورؤوها بالتعاليم .
مرة قلت لقديسي	سمع المسارون هذا
اذهبوا الى العالم اجمع	ونظر بعضهم الى بعض
وتلمذوا لي الامم	وحركوا رؤوسهم :
والملوك ^١	من اين لنا
فقد دفع اليّ ابي كل شي ^٢	الصوت واللسان
ما فوق وما اسفل	حتى نخاطب الجميع ؟
التي كنت اسود عليها	من يعطينا القوة
قبل ان اخذت الجسد	ان نجابه الشعوب والامم ؟
والآن فاني ملكت	فنحن اميون ، ولا علم لنا
على الجميع واخترتكم لي	من اين لنا كل ذلك
نخبة مقدسة	لنفعل ما امرتنا به
انا العارف وحدي	انت العارف وحلك
اسرار القلوب .	اسرار القلوب ؟

(١) مرقس : ١٦-١٥ ، لوقا ١٠-٢٢

(٢) متى : ١١-٢٧ ، متى ٢٨-١٨

(٣) متى : ٢٨-١١

١٥ لا يضطرب قلبكم الآن " ١٦ مع ذلك سأعطيكم قوة
ولا يظلم العدو عقلكم ،
لا تفكروا كالاطفال ،
بل كونوا حكماء .
كالحيات " .
من اجلكم
انا اردتكم كحية " .
لا تهملوا تبشيري
بسبب الخوف ،
انا لا اشاء .
ان اغلب بالقوة ،
انما انا اغلب بالضعف .
انا لا افرح بالمتفلسفين ،
فقد احببت
حماقات العالم ،
انا العارف وحدي
اسرار القلوب
الانثائين
وكيفا ، بطرس نفسه
يهدي الآخرين ،
عندما يبشرني .
واما القول « ماران اتي » ،
فيبدد الاقوال الشاردة
والخرافات ،
والناصرة ترعزع كودنتس
وعندما انتم تنطقون ،
فانا اشددكم ،
انا العارف وحدي .
اسرار القلوب .

(١) يوحنا : ١٤ - ١

(٢) متى : ١٠ - ١٦

(٣) اشارة الى ما جاء في قول المسيح : وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا يبنني

ان يرفع ابن البشر . يوحنا : ٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ٢١

١٧ بالشتائم جميعكم تغسلون ،
 وفي السجون تجلسون ،
 وبالسلاسل بمنف تقيدون ،
 وللولاة تسلمون^(١) ،
 لكي لا أدعكم يتامى .
 فانا معكم حتى المنتهى^(٢) .
 وعندما تقفون
 امام القضاة ،
 تنظروني في وسطكم ،
 وحينما تقيدون انتم ،
 فانا اقيد معكم .
 ألا احتملوا كل شي .
 معي وبي !
 واستمروا على عزمكم
 فأجاهد انا بكم ،
 انا العارف وحدي
 اسرار القلوب !
 ١٨ عندما سمع التلاميذ الحكماء
 كلمات المعلم الحكيم
 اجابوه عليها :
 انت تبشرنا
 بكل ما هو قاس .
 ومفعم خوفاً وموتاً
 قد كنا نفكر الآن
 في الهرب من هذا
 لتتحد بك .
 وان انت اسلمتنا
 الى القساة ،
 فانت بالحقيقة مخلصنا
 تدعونا الى الراحة .
 وها انك
 تتقدمنا الى الجهاد ،
 انت العارف وحدك
 اسرار القلوب .

(١) متى : ١٠ : ١٦-٢٤

(٢) متى : ٢٨ : ٢٠

١٩ هوذا الحظ يدعوكم	٢٠ فاذهبوا اذن
الى الجهاد ،	الى العالم اجمع ،
وشريعة المحبة	وانثروا في الأرض
تطلب منكم	زرع التوبة
ان تظهروا عمل الحب	ورودها بالتعاليم
تألموا لأجلي كأحباء ،	كيلا يبقى انسان
كما انا تألمت	خارج شباككم .
من اجل الأحباء ،	فانا ابتهج
من غير ان أكون مديناً لاحد .	بالراجمين اليّ .
ما كان من داع	واعلموا انتم ايضاً :
ليسعوني الى الموت ،	ان لو عاد اليّ
انما قبلت الموت ،	بعد التسليم ،
وصبرت على الصليب	ذلك الذي أسلمني ،
كمدين .	لمحوت له خطيئته
انا ، انا البري .	واتحدته بكم ،
دفعت دينكم الابوي طوعاً ،	انا العارف وحدي
انا العارف وحدي	اسرار القلوب .
اسرار القلوب .	

- ٢١ أبغضوا الحزن واليأس ،
 فيها يدفعان كثيرين
 الى الموت كما تبين
 هذا في يهوذا
 فاعرفوا كيف ان اليأس
 حبك ليهوذا الدافع
 حبل المشتقة .
 بالحقيقة ان اجولة
 الشيطان غريبة .
 حتى في هذا الأمر .
 لانه عوقب في الحال .
 وبدلاً من الاستخويوطي
 سأدعو الكيليكى ،
 وبدلاً من المحتال
 سأدعو الصادق ،
 وبدلاً من الدافع
 سأدعو بولس ،
 انا العارف وحدي
 اسرار القلوب .
- ٢٢ يا أخلائي الاجابوا اخوتي
 ادعواكم اخلائي
 ولا اسميكم بعد عبيداً ،
 فانتم ابناي
 وارثون معي .
 انتم كواكب المسكونة كلها ،
 انتم اشعة شمسي المنيرة ،
 انتم حرسة امنا .
 نحرسون مفاتيح كنوزي ،
 انتم وسطاء للمواهب
 المتدفقة مني
 لآدم التائب .
 انتم اعمدة كنيسة
 الذين انتشلتهم
 انا من البحر ،
 انا العارف وحدي
 اسرار القلوب .

١٢٣ كرزواني	٢٤ خلصوا العالم اذن
في العالم هكذا ،	بهذه التعاليم ،
واظهروا ما انا عليه ،	وعمدوا باسم الاب
واتركوا اذن	والابن والروح القدس .
الامثال والاحاجي ،	فَتَشَجَّع الرسل
وقولوا : اني اله ،	بهذه الاقوال
اخذت صورة عبد	وقالوا للخالق :
بطريقة لا تفسر .	انت اله أنت ،
يتنوا كيف اختصت	وقبل الدهور
لذاقي جراح الجسد طوعاً .	وبغير فناء .
ولو غير ماث ،	انا نعرفك
بما اني اله ،	الهاً واحداً
فقد اتيت الى الموت	مع ابيك والروح ،
بالجسد .	ونكرز بك ، كما أشرت .
ولو اني دفنت كمحكوم علي	فكن انت معنا
فقد سبيت الجحيم كسيد ،	ولا أجنا ،
انا العارف وحدي	انت الماروف وحلك
اسرار القلوب .	اسرار القلوب .



ESSAI SUR LA TRIBU DANS LE PROCHE-ORIENT

par

PIERRE RONDOT

Docteur en Droit

L'observateur oriental qui aborde le Proche-Orient est d'emblée frappé par l'abondance, la diversité, l'imbrication des groupements humains. Leurs très nombreux cloisonnements, en effet, se superposent, si l'on peut dire, et divisent la masse humaine, comme par des quadrillages surajoutés selon diverses entités: tribu, confédération, clan ou faction (1), communauté, cité. Ainsi se trouve offerte une matière très abondante aux études monographiques, qu'il est indispensable d'accumuler tout d'abord, et auxquelles il serait peut-être sage de se borner tant qu'elles n'auront pas été produites en nombre suffisant pour permettre de solides synthèses; mais ce terme est encore très lointain.

Sans attendre qu'il soit échu, cependant, ne serait-il pas possible, ne serait-il pas utile d'esquisser quelques traits généraux de ces phénomènes de cloisonnement, et de chercher à reconnaître et à caractériser quelques-unes de ces entités, faction, communauté ou tribu? Ne servirait-il qu'à préciser quelques idées, ou même qu'à faire apparaître les lacunes de notre information, un tel essai vaut peut-être d'être tenté; on nous excusera de le faire ici, et d'en soumettre d'autant plus volontiers les résultats à la critique que nous les savons très incomplets. Nous bornerons, au demeurant, cette tentative à l'esquisse d'une morphologie de la tribu; des avis et des réflexions ultérieurs décideront s'il convient de poursuivre cet essai sur d'autres plans.

LE CLOISONNEMENT URBAIN

Il est bon de commencer l'observation du cloisonnement dans le cadre où il est le plus apparent, c'est-à-dire dans celui de la ville. Ici apparaît déjà une particularité de l'Orient: tandis que dans la ville occidentale les compartiments sociaux se font indiscernables, souvent même se dissolvent, ils apparaissent jusque dans la structure matérielle de la ville orientale traditionnelle.

(1) Nous empruntons, dans ce sens, le vocable de *faction* à Volney, pour désigner les divisions traditionnelles de nature non tribale, telles que Qaïsi et Yemeni dans le monde arabe ancien, Yezbeki et Jumblatti dans le Mont Liban, Mil et Siliv chez les Kurdes, etc. Très différente de celle de tribu, bien que connexe, la notion de *faction* ou *clan* n'est nullement envisagée, malgré son importance, dans la présente étude.

Voici la maison sans presque d'issue visible, largement ouverte seulement sur la cour intérieure, si bien faite pour abriter, dirait-on, la famille patriarcale et fermée; le jardin sans perspectives extérieures, clos de hauts murs, l'antique «hortus conclusus»: jardin de Saadi, qui «séduit le cœur», jardin de l'âme, prolongement d'elle-même. Voici, plus vaste et plus complexe, mais à peine moins close, la cellule du foyer religieux dans la gangue des édifices aveugles, desservie seulement par quelque couloir voûté et coudé, s'ordonne, pareille à un géode ou à une ruche, ~~une petite cité où s'ouvrent les uns sur les autres l'église, la résidence de l'évêque et son divan, la maison du sacristain, le parvis avec son arbre et son puits, l'école, le séminaire. S'il s'agit d'un foyer du culte musulman, il sera moins dérobé, mais l'architecture implicite n'en paraîtra pas différente, avec le sanctuaire, la fontaine, la citerne, les mausolées, la cour où déborde la classe coranique, le terrain vague et l'arc sans emploi, et toutes les chambrettes agrégées des hommes qui animent cet espace. Damas, Istanbul, Jérusalem, Alep offrent encore au voyageur le spectacle de ces alvéoles à demi dérobées, parfois figées et dévastées, parfois vivantes encore, et qui laissent ingénument apparaître le mécanisme de leur développement sans tentacules que le dehors ne sollicite pas.~~

Souvent jadis, lorsqu'il s'agissait de cultes minoritaires, les foyers religieux ont formé le centre de quartiers, clos eux aussi de murs et de portes à verrous, qui sauvegardent farouchement leur individualité à l'intérieur de la ville. Mais, tandis que la ruche autour du sanctuaire évoquait retraite et recueillement, c'est ici défense, solidarité de destin qu'il faut penser. Cependant, les correspondances que les formes suggèrent sont-elles toujours vaines? Rien qui soit plus semblable à un monastère, aux cellules ouvertes sur un cloître, que le caravansérail qui littéralement renferme voyageurs et marchands. Et, dans la ville orientale traditionnelle, on sait que la concentration commerciale est de règle: la qisarya groupe étroitement les orfèvres, les joailliers; certes ceci est fait tout d'abord pour la sûreté, mais ce groupement obligé engendre, avec le coude à coude, des complexes d'estime et de défiance, cimente des mœurs et des traditions, forge de puissantes communautés instinctives. Une logique particulière étaye ce groupement topographique par spécialités des artisans et des commerçants, qui surprend l'Occidental attentif surtout aux conditions de la concurrence et féru d'aventure individuelle. Aussi, à l'instar des foyers religieux, les centres commerciaux du vieil Orient, vastes comme l'immense bazar d'Istanbul, ou minuscules comme le souk damascène d'Ali Pacha, rue de fruitiers et de gargotiers, vivent-ils de leur vie propre, distincts au premier regard, comme des îles irréductibles au milieu de l'océan urbain.

LE CLOISONNEMENT TRIBAL — LE CONCEPT DE LA TRIBU

La ville rend sensible, de la sorte, l'existence et la vigueur de la cellule orientale. Mais bientôt un œil attentif n'aura plus besoin, pour discerner de pareilles cellules, que quelque chose soit bâti autour d'elles et leur fasse de visibles coquilles. Entre les murs naturels, mais irréguliers, mal définis, des plis de montagne, la tribu kurde est aussi ramassée, aussi cohérente, aussi bien centrée que dans son enceinte de maçonnerie l'antique communauté chrétienne d'Alep. Et dans la steppe apparemment indéfinie, mais jalonnée pour elle de pistes, éclairée de puits, de pâturages, de terres de parcours, la tribu arabe que le nomadisme étale sur des centaines de kilomètres reste à proprement parler rassemblée.

Dès que l'on quitte les villes, l'on s'en avise en effet: l'armature de ces corps sociaux traditionnels est faite moins de murs construits, de carapaces de pierre, que de coutumes, de tendances, de mœurs, de desseins volontaires, mouvants et vivants, réalité intime dont l'architecture n'est que le signe occasionnel. Ces petits mondes sont clos en pensée, en volonté, avant de l'être en figure et en fait. Lorsque d'ailleurs l'homme de tribu bâtit, fût-ce provisoirement, il construit spontanément des cellules visibles tout semblables à celles des villes: campement de nomades

ou village de recents sédentaires, c'est encore le cercle de tentes, le groupement autour du parc et du point d'eau, images spontanées d'un monde suffisant et clos.

De ce rapide inventaire, si incomplet qu'il soit, une notion ressort, celle de clôture. Clôture autour de ceux qui ont les mêmes adversaires, parce qu'ils ont les mêmes intérêts: une identique conception de la vie, les mêmes buts, une préférence instinctive ou nécessaire pour les mêmes moyens d'action. Au delà du fait de la clôture, chercher à reconnaître les raisons qui l'ont suscité, les forces qui le maintiennent, ce sera peut-être une chance de pénétrer dans l'esprit de la tribu.

Définir, s'il se peut, la tribu, constitue l'objectif même du présent essai: mais il nous faut, provisoirement, en retenir ici une notion courante sur laquelle chacun puisse s'accorder, afin qu'il n'y ait point d'ambiguïté sur le sujet de cette étude. «La tribu, écrit W. R. Hay à propos des Kurdes de l'Iraq septentrional, est une communauté ou une confédération de communautés qui existe pour la protection de ses membres contre une agression extérieure et pour le maintien des vieilles coutumes raciales et du genre de vie» (2). Groupe humain conscient, cohérent, très individualisé, la tribu apparaît bien distincte dans le peuple dont elle fait partie; elle est plus que la famille, moins que la nation. Parmi les entités sociales spontanées de l'Orient, c'est précisément la plus sociale, d'où l'intérêt que peut offrir son étude. A la différence de la communauté et souvent même du quartier, elle n'est pas d'abord religieuse: à la différence de la corporation, elle n'est pas d'abord économique. Elle dépend même relativement peu des conditions physiques: dans son essence, en effet, elle ne diffère guère selon qu'elle est semi-sédentaire en montagne ou nomade en steppe. C'est de l'homme qu'elle dépend: elle est à sa mesure.

L'IDEE DE TRIBU CHEZ L'HOMME DE TRIBU

L'homme de tribu se reconnaît d'emblée à la fierté qu'il tire de cette qualité; il n'est pas de plus sûr critère. W. R. Hay le note très justement: dire que l'on est un homme de tribu, c'est proclamer: «je suis citoyen romain», «civis romanus sum». De nos jours encore, où tant d'entités sociales plus vastes et plus puissantes: la nation, l'Etat, semblent devoir primer la tribu et la priment en effet dans tous les domaines de la vie pratique, le prestige tribal demeure très grand: le bourgeois des villes se pare volontiers d'une ascendance bédouine, goûte la pureté de la langue des nomades, apprécie leur sens de l'honneur, saisit volontiers l'occasion de suivre quelque mode née sous la tente.

Pour que la sensibilité tribale s'impose ainsi au dehors, il faut que l'élément affectif revête, dans la tribu, une importance extrême. L'homme de tribu, en effet, se relie à la tribu par un sentiment que nous qualifierions volontiers de patriotisme tribal pour faire ressortir, par ce terme quelque peu excessif, tout ce qu'il y a là d'instinctif, d'immédiat et de profond. Cet attachement adhère non seulement à des traditions, à des croyances, à des droits qui forment le «patriotisme tribal», il s'accroche aussi à des signes sensibles, à des images. Ainsi l'idée, même controuvée et mythique, que la tribu se fait de son origine, vient par sa force émotive; l'ancêtre éponyme, le signe (par exemple, le palanquin sacré des émirs Rouallah), le proverbe qui célèbre une vertu de groupe («Cherwan avec son épée, Kherzan avec sa bravoure...», dit-on chez les Kurdes), marquent l'esprit simple et vif des gens de tribu et le déterminent.

Nourrie de la sorte, la conscience de l'appartenance au groupe est très vive chez tous les membres de la tribu. L'originalité même de cette société, dont la faible extension limite l'horizon propre, favorise cette concentration du sentiment et de la pensée. Aussi chaque tribu est-elle for-

(2) «Two years in Kurdistan», Londres, 1921, page 63.

ment individualisée, elle ne ressemble à aucune autre, elle est irremplaçable; son histoire ou sa légende la distingue très fortement des autres tribus et des groupes sans caractère tribal qui ont cependant en commun avec elle la race, la langue, la religion. Elle se place donc, sans contestation possible, au degré qui lui revient dans la hiérarchie des tribus. La fierté tribale peut pousser, comme la fierté nationale, à la recherche du succès matériel, de la conquête, de la fortune; ces avantages éventuels ne peuvent influencer sur la grandeur véritable, classée, de la tribu, grandeur déterminée non par son succès actuel mais par son origine, son honneur antique et ses fastes. Notre ami très regretté, Albert de Boucheman, étudiant les rapports des Maoualis et des Haddidynes (3), a parfaitement évoqué le complexe édifice de préséances, de dépendances, de clientèles tribales, qui demeure ainsi vivant dans les tribus en marge et même en dépit des faits; et il lui a fallu, en vue de rendre compréhensible au lecteur cette structure cependant si familière aux gens de tribu et toute naturelle pour eux, recourir à des représentations graphiques ingénieuses et compliquées.

LES OBJECTIFS DE LA TRIBU

L'objectif essentiel d'un organisme social aussi marqué, ce sera de persévérer dans son être; il n'en saurait aller autrement.

Il lui faut donc organiser la sauvegarde de ses intérêts de groupe, si sensibles à tous, si conscients et immédiats pour tous; en somme, conserver ces biens acquis, objets du patriotisme tribal. La tribu est donc essentiellement traditionnelle et conservatrice.

Pour subsister telle qu'elle désire être, la tribu ne saurait vraiment compter que sur elle-même. Groupe social clos et économie fermée vont de pair; il serait assez vain de rechercher lequel de ces deux éléments, à l'origine, a conditionné l'autre; leur association est immémoriale. D'ailleurs, si cette autarcie primitive n'était pas une nécessité d'ordre nourricier, elle serait vite devenue une obligation de sécurité: comment conserver la jalouse autonomie d'un faible petit groupe, si l'on ne peut tirer du sol même qu'il domine toutes les ressources essentielles? Pâturages d'hiver et d'été, cultures de vallées et alpages, points d'eau, artisanat élémentaire suffisent à presque tous les besoins courants; l'exportation ou la contrebande de quelques produits de choix: chameaux de course, étalons, fins tissus de la steppe, noix de galle et mohair de la montagne, suffisent à permettre les rares importations de luxe nécessaires au prestige des chefs et surtout l'indispensable achat des armes perfectionnées qu'il faut bien acquérir au dehors, seule mais redoutable brèche dans l'autarcie tribale; brèche qui menace, il est vrai, toutes les tribus à peu près également.

Car la défense des intérêts tribaux implique souvent la lutte par les armes. L'honneur, le plus exigeant de ces intérêts, ne se nourrit que de combat; c'est lui, bien davantage que la vulgaire nécessité, qui pousse au rezou, du moins dans le principe: c'est lui qui entraîne d'interminables chaînes de vendettas, car la tribu met en commun l'honneur de chacun des siens; et il n'est point d'affront, point de préjudice, donc point de riposte ni de défense qui ne soient ipso facto affaire de tribu. La tribu est en quelque sorte, si l'on nous permet l'expression, une coopérative de respectabilité et de défense, comme elle est une coopérative de sentiment et de subsistance.

Mais la plus grave menace pour la tribu n'est pas issue des tribus elles-mêmes: les rivalités tribales ont quelque chose de tonique et de bienfaisant. L'adversaire vraiment redoutable, c'est le monde non tribal: c'est le sédentaire décrié, dépourvu aux yeux de l'homme de tribu des

(3) «Revue des Etudes Islamiques», Paris, 1934.

qualités viriles, mais qui prend sournoisement l'avantage comme marchand, comme propriétaire foncier, comme prêteur, gens auxquels la difficulté des temps oblige de recourir : c'est l'autorité religieuse, qui modifie l'ordre des valeurs et, partant, parfois bouleverse l'édifice du commandement; c'est l'Etat surtout, qui prétend au pouvoir exclusif et entend assumer la défense de tous les intérêts, mais qui ne saurait comprendre les profonds attachements instinctifs de la tribu et qui désagrège les traditions. Contre de tels adversaires, la meilleure sauvegarde de la tribu, celle qui lui permettra peut-être de survivre moralement, dans quelque mesure, à son écroulement matériel, c'est son prestige.

LES INSTRUMENTS DE LA TRIBU: LA COUTUME, L'AUTORITE

Soutenue par sa fierté et sa volonté d'autonomie, mais servie par des hommes en nombre toujours trop faible et des ressources toujours précaires, la tribu trouve ses instruments propres dans la coutume et l'autorité.

La coutume est l'expression juridique du groupe tribal: à ce titre, elle le caractérise complètement. Sa force est telle que, non seulement elle rend peu concevable toute loi civile extérieure, mais encore qu'elle supplée parfois, dans ses conséquences sociales, la loi religieuse elle-même. Ainsi les tribus assyriennes, chrétiennes, ont-elles pu jadis vivre en symbiose avec des tribus kurdes, musulmanes, tandis que, pour s'insérer dans ce système, le patriarcat nestorien avait dû en quelque sorte se modeler selon le type tribal, et voir l'efficacité de son intervention le céder parfois à celle d'un petit chef de tribu.

Hors du temps de crise, la coutume suffit parfaitement à maintenir l'édifice tribal, au sein duquel le chef fait ordinairement figure de simple arbitre. Mais, la crise étant fréquente dans l'ambiance tribale, la contrainte y apparaît souvent nécessaire; l'organisme tribal ne se concevrait pas sans autorité. Dans une certaine mesure, comme nous avons essayé nous-même de le faire à propos des tribus kurdes (4), on peut envisager l'ensemble des affaires de tribu sous l'angle de l'autorité; cette autorité, toutefois, est originale dans sa source, son caractère, son exercice.

Le commandement de la tribu n'est pas absolument héréditaire: dans la famille que son rang consacre, ou, comme c'était par exemple le cas chez les Assyriens tribaux, dans les familles qui sont appelées à alterner au pouvoir, le chef n'est pas toujours désigné par la primogéniture; il y faut aussi le choix ou du moins le consentement des notables, et sa propre énergie, qui devra éventuellement aller jusqu'à la suppression du frère ou du cousin rival. Tacitement au moins, il faut que le chef soit accepté, et le perpétuel accès direct que les hommes de tribu ont auprès de lui atteste une sorte d'égalité tribale autant qu'il consacre le loyalisme.

Une fois le chef admis, son autorité, normalement limitée à l'arbitrage selon la coutume, n'a plus en temps de crise d'autre borne que ce contentement tacite. C'est dire qu'un chef ne peut qu'être fidèle à l'idéal tribal et ne peut qu'être efficace: sinon, il cesse de soutenir son personnage, et bientôt il n'est plus. C'est dire aussi que du style du chef, de son caractère, dépend le prestige de la tribu et le degré de sa survie: elle s'effrite si le chef médiocre est justement contesté par des rivaux; elle amalgame, au contraire, des groupes voisins, si le chef est assez adroit et assez fort pour les attirer dans son orbite.

(4) «Bulletin d'Etudes orientales» de l'Institut Français de Damas, tome VI, Le Caire, 1937.

ESSAI D'UNE DÉFINITION DE LA TRIBU

Au terme de cette rapide analyse, on souhaiterait ramasser en quelques lignes concises une description de la tribu, aussi proche que possible de la définition de son type.

La tribu, pourrait-on dire, est un groupement humain spontané, disposant accessoirement d'une assiette territoriale; c'est un organisme fortement individualisé, inspirant à ses membres un vif attachement sensible et le sentiment d'une supériorité spécifique, reconnue parmi les groupements non tribaux; tendant fortement à persévérer dans son être, elle a vocation de garder les traditions, les modes ancestraux de vie, l'honneur de chacun et de tous, les intérêts communs; elle recherche sa survie par l'autarcie et la défense coopérative; méfiante envers l'étranger comme envers l'innovation, elle se réalise juridiquement par la coutume et se gouverne par une autorité de nature et de choix spécial, qui tend à exclure toute autre autorité.

Est-il besoin d'ajouter que, dans le monde moderne, nul organisme ne saurait subsister qui réponde entièrement à toutes ces caractéristiques? Mais dans l'Orient beaucoup de groupes humains placent encore, plus ou moins consciemment, l'un ou l'autre de ces traits au premier rang de leurs idéaux. Mieux encore, bien des groupements dont l'origine, tout à fait moderne, n'a rien à voir avec les tribus, empruntent aux vieilles conceptions tribales des éléments qui, adaptés à leurs nécessités propres, concourent à leur force, à leur durée, à leur prestige. Si la tribu à l'état pur, la tribu traditionnelle est du passé, cent formes pseudo-tribales, paratribales, sont bien vivantes et prolifèrent; elles s'imposent quotidiennement à l'attention du sociologue et, requérant de lui la connaissance de la tribu *en-sol*, confèrent un intérêt permanent à l'étude de ce qui subsiste encore des tribus traditionnelles.
